تأملات في مقدَّس الممارسة الثقافية وممنوعاتها بالمغرب

عبد الحميد عقار

يلتفت الكاتبُ إلى الماضي، لحظةَ انشداده إلى مستقبل مبهم، بغير قليل من الارتباك والدهشةِ ومعاودةِ التطلّع. وهو يفعل ذلك محفَّزًا برغبة مزدوجة: رغبةٍ في تأثيث الوجدان بصورٍ من ذلك الماضي وبقاياه الموشومةِ في مجاهل الذاكرة؛ ورغبةٍ أخرى في إضفاء المعنى على حاضرِ أناه. وفي التأثيث والمعنى معًا ما يسوِّغ تأرجحَ الكتابة بين رضوانٍ مبعثُه ما يُشْبه اليقينَ، وقلقٍ منبعُه ما يَحْمل على الريبة والتساؤل. إذّاك تَنْهض الذكرى سواغًا للغصص والخيبات، وإيقاظًا للسؤال عن الحاضر والمآل. ويمسي التذكُّرُ ملتقى توتُّر عنيف بين الما قبل والآن. ومن لحظة التوتُّر هاته ينبجس وميضُ ذلك الآتي المجهولِ المفتوحِ على كلّ الاحتمالات.

غير أنّ عملية التذكّر ليست بريئة: فقد يَحْدث أحيانًا أن تَنْساب من بين ثقوب الذاكرة بعضُ مكنونات منطقة البياض والنسيان، تلك التي يَحْكمها مبدأُ الإقصاء. فبينما كنتُ ألملم عناصرَ هذه التأمُّلات باستقطار المحفوظ والمدوَّن معًا، انثالتْ عليَّ الصورُ والرؤى الثاوية في غياهب الذات ومناطقها الظليلة، وظلّت الواحدةُ منها تغالِبُ الأُخريات وتَدْفع بها إلى الظلّ من جديد. وفيما تَواصَل الانثيالُ اشتدّت المغالبةُ وتسارَعَ إيقاعُها. لكنّ أيّام الدم المباح والحظْر المشاع بالجملة هي التي استأثرتْ بالمشهد، وكان أن سَوَّتْ هذه الحروف إحدى ليالي تلك الأيام شذراتٍ ومشاهدَ، ناسجةً إيّاها نصيْن في واحد:

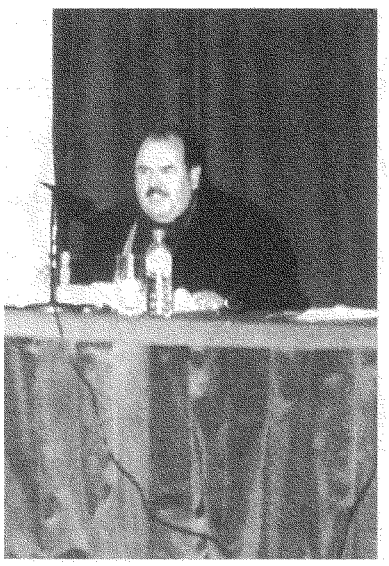

عبد الحميد عقار: منعت السلطات مجلته **الجسور** في بدايات الثمانينيات

من ليالي الدم المباح

في ليلة تقع بين الحادي عشر والرابع والعشرين من يناير ١٩٨٤ هبّ على الذات حنينٌ عاصفٌ إلى مغازلة نخيْلات الرباط في وحشتها، وفي النفس هذا الرجعُ: «الغربة في الغربة أنسٌ ومسرّة.» اجتاحني هذا الحنينُ وأنا ألتهم الكلمات الأخيرةَ من مقالٍ نقديّ استغرق منّي اليومَ كلّه، وكان بعنوان: «مَرْجع مركّب: الديكتاتور من منظور أليخو كارپانتييه، وميغيل أنخيل أستورياس، وغابرييل غارسيا ماركيز.»

ما إنْ لمحتُ النخيلَ على مرمى البصر حتى بدا مكتئبًا. كان واضحًا أنّ الأمر يتجاوز الشعورَ بالوحدة إلى الإحساس بالمحاصرة: فقد اصطفّ على جنباته قومٌ طوالُ القامات، كالحو الوجوه، مدجَّجون بالخوذات والهراوات، بين الواحد والآخر مسافةٌ موزونةٌ مقفّاة، وأمامهم واحدٌ أكرشُ يَذْرع الأرضَ جيئةً وذهابًا ويبدو في عجلة من أمره.

بسرعة قفزتْ إلى ذهني صورةُ «الكوم» [وهو كائنٌ يتمّ تخويفُ الأطفال به ـ عبد الحق لبيض] تحكيها الأُمهاتُ في النصف الأول من الخمسينيات لتخويف الصغار وإغرائهم بأن يتحصّنوا داخل البيوت قبيْل مغيب الشمس. كان الكوم أيضًا من ذوي الأبدان الفارعةِ الطول، واللونِ الفاحم، والقهقهاتِ المهترئة. وقبل أن تتملكني عذوبةُ الحكايا، صَرَخَ فيّ صوتٌ بغرور ظاهر: «آسي محمد؟» إنّه صوتُ شرطيّ مداوم، سمرتُه قوية، ولا يكاد يَبْرح واجهةً زجاجيةً تَغْمرها صورٌ مختلفةُ الأحجام والهيئات. تجاهلتُ النداء. لعلّ الشرطيَّ أخطأ في الاسم، أو لعلّني لستُ المعنيَّ. ولكنّه في رمشة عين اعترض طريقي. احتدَّت لهجتُه قليلاً:

ـ فَقَدْت سَمْعك؟

ـ مساء الخير أولاً.

ـ لا مساء الخير ولا صباح الليل! البطاقة!

وبينما هو يتفحّصها ويعيد التفحُّصَ من الجهتين، تساءلتُ: هل يختلف مضمونُ ما هو مكتوب بالإفرنجية عما هو مكتوب بالعربية؟ ودون أن أنتظر الجواب أو يسعفَني بالأحرى، سرح الذهنُ بعيدًا مرتدًا بي القهقرى نحو هنيْهات لم أتبيَّن زمنَها. في نقطةٍ ما من رحلة الشرود هاته، بَرَزَ ذلك الشيخُ بوجهه الملتحي ولباسِه الأبيض المخلَّط بالبنيّ والرماديّ، وحولَه أطفال كثيرون متحلّقون تَحْجب الألاويحُ أوجهَهم، وتتعالى أصواتُهم بالتهجّي والترتيل دفعةً واحدة؛ فيما يصغي هو إليهم جميعًا، فينهر هذا، ويوقظ ذاك، ويصحّح للآخر، ويردّ التحيةَ على مارٍّ عابر. وإذ أَسْتلم منه لَوْحي بعد أن صَحَّحه وضَبَطَ علاماتِ الوقف من الوجهين، صرتُ أستظهر من سورة النمل وأرتّل في نفسي: ﴿حتى إذا أَتَوْا على وادِ النَّمْل قالت نَملةٌ يا أيُّها النَّمْلُ ادخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يُحَطِّمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وجنودُه وهم لا يَشْعرون﴾.

سليمان، النمل، الكوم: عواملُ حبكة رائقة من دون شكّ، في بنائها من المتعة على قَدْرِ ما يتيحه من التأمل. الكوم في انتظار الإشارة. النمل يتلافى أقدامَ الجند المصفّحة. لقد تأهّب الكوم، وأخذ النمل يحاول ذلك، وانطلقتْ حركةُ التمرين والدورة والنصف دورة. تسارع الدبيبُ وانفرط الصفّ. أمّا سليمان فبدا منهمكًا في الشؤون السماوية غيرَ عابئ بالشؤون الأرضية، لولا نظّارةٌ سوداءُ غيرُ مألوفة، ولولا عودةُ التجعيدة وثنياتِ الجبهة إلى البروز وهي تكاد تبوح بما لم يُقَل بعد في حضرة سبإ. سبأ؟ أَنَطَقْتَ بسبإ؟ أبصنعاء أنا أمْ بالرباط؟

«لا. الليلةَ لم تفقدْ سمعَكَ فقط، بل عقلكَ أيضًا على ما يَظْهر،» زمجر الشرطيُّ الأسمرُ وتابع: «ما علينا. أنت قريب من هنا. يا اللّه بسرعة، إرجعْ منين جيت.» حاولتُ أن أقول له: «قبل ساعتين شاهدتُ النشرةَ المسائية، لم أسمع منها ما يفيد الحاجةَ إلى الامتناع عن النزهة والتجوال ليلاً.» شاهدتُه وقد هامت به فصاحةُ الألفاظ الديوانية ورنينُها. وأطلق العنانَ لحنجرته كما لو أنّه فوق منبر فصاح:

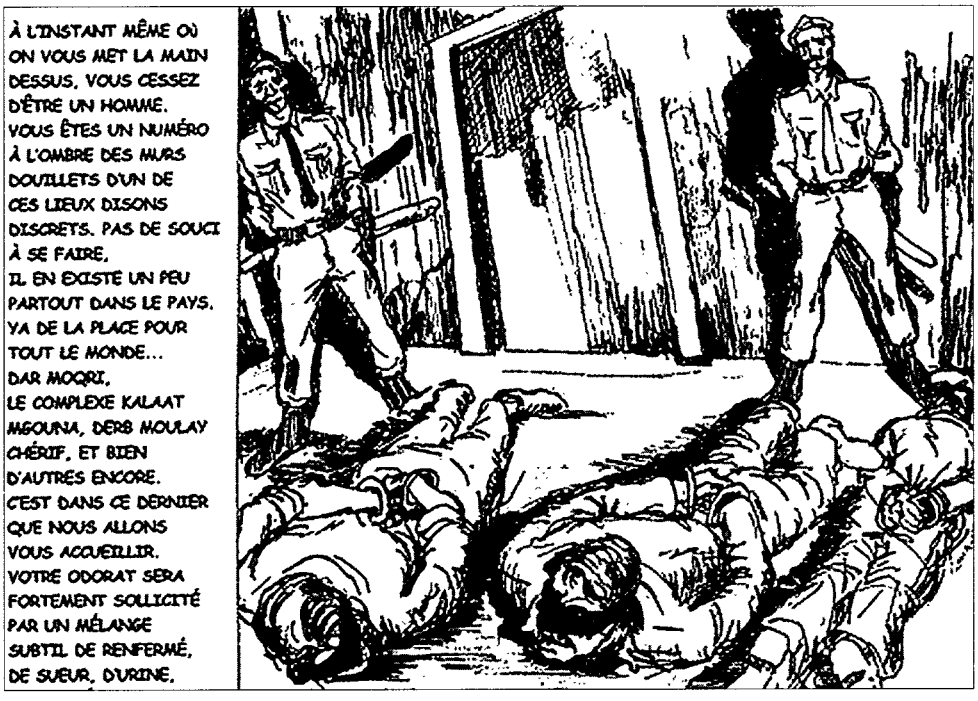

من رسوم عبد العزيز مريد في سجن الثمانينيات

ـ بلادنا اليوم أعظم بلاد، من حقّها أن تزهو بنفسها بين الأمم العظيمة. فهي اليوم ملتقى الأجناس ومجمعُ القمم. نظرةُ السوء تُلقيها عينُ الحسود وحدها، ومِنْ أذاها هي في حِرْزٍ مكين...

وقبل أن يأتي على ما للأذن به طاقة كتمتُ صوتَه وخرجتُ. كتَمَ الشرطيُّ بدوره صوتي، واعترض على ما سأحكيه متوعِّدًا: «شوف آسي. ليست السياسة من شغلي. هذا الكلام عاوْدُو لنفسك. ادخلْ إلى دارك دابا وباركا [أيْ: يكفي، والآن].» بجانبه، أخذ مَخْزنيّ يحرِّك سوطًا جلديًا ويَعْبث به، شارحًا بذلك فحوى ما فاه به المداوِم: لعلّني أكون لبيبًا فأعفيهما بالانصراف من وزرِ الشهادة، أو عنيدًا فأغمّهما جزاء الضراوة.

نِمْت على وقع وعيد اللّسان وتحريك السياط. عند الإغفاءة الأولى تابعتُ لعبةَ المبارزة بين الكوم والنمل: فبينما يُطْلق الأوّلُ الهراواتِ نحو الأمام، يكون النملُ قد اصطفّ إلى الوراء؛ وفيما يقوم الكومُ بنصف دورةٍ نحو الوراء، يكون النملُ قد تسلّق الأشجار. يضع الكوم الأيدي على الزناد؛ يُشْرع النملُ صدرَه للضحك والبكاءِ. أُعطيت الإشارةُ. انطلق وابلُ الرصاص يُمْطر الأشجارَ نارًا ودخانًا. قطراتُ الدمع تنزل. نُزَف الدم تسيل. سعفُ النخيل وعراجينه تبتلّ ويتساقط بعضُها. تَهْمد الأرواحُ، فيتلاشى الضحكُ والبكاء. لكنّ صداهما يواصل الرنينَ والتردّد. ويغمرني دفءُ الدمع والدم. أَحْمل عنفًا إلى حيث لا أدري. عند الوصول قيل لي: «ها أنت في جنّة الجنان، نهارُها كليْلها، لا يأتيهما الضوءُ ولا الطعامُ ولا الخبزُ. فيها يصبح الكائنُ هو الكلّ في الكلّ، مِنْ جلده يطْعم وفيه ينام.» فتحتُ فمي وعقّبتُ: «لكنّ الجنّة ليس فيها ليل، إنّما هو نور يتلألأ،» قاله ابنُ منظور.

ضرب كفًا بكفّ وأخرج سجلاً من جيبه. بعد التمعُّن أَمَرَ أعوانَه: «خذوا عنوانَ هذا البائس. لعلّه من المبتدئين، أو لعله من خليّةٍ أخرى لم نكشفْ خيوطَها بعدُ. احملوه بما معه من كراريس وانتزهوا به في جنّة الجنان كي يُحْسن وصفَها استقبالاً ويكفَّ عن تحريف الكلام.» وتابع أوامرَه: «أمّا الواصلُ إلينا فأَوكِلوا به مَنْ يوفي له الضيافةَ، فحسابُه لدينا وفير. فقد تعلّم ورأى وسمع وخاض في القيل والقال، وها هو يهمّ بالحكي. وله أن تعصبوا عينيْه إذا لم يرغب في مشاهدة الطقوس.»

في لمح البصر وجدتُ نفسي ممدّدًا فوق خشبةٍ رؤوسُ مساميرها الحادّة إلى الأعلى. يحيط بي سبعة أشدّاء عدًا واحتسابًا: ثلاثةٌ منهم عن يميني، ومثلُهم عن يساري، وفي أسفل الخشبة عند قدامي وقف سابعُهم يراقب الأمر. كانت الوليمة دسمة. تداعت الضربات سياطًا. ثلاث تَعقبها ثلاث. توالت الكلماتُ شتمًا بذيئًا. لسان يتلوه لسان. ومن السابع يأتي التنبيهُ إلى السوّاطين: «احذروا أن تصيبوا الرأس، فلم نقف بعدُ على ما بخلده. ولا بأس إنْ بالغتُمْ في الاهتمام بالباقي من أعضاء البدن.» وفيما الجسدُ تقيّده أصولُ الضيافة البالغة الحفاوة، تاهت الروحُ قليلاً بحثًا عن ملاذ أو مخرج، وتوقًا إلى مطلق الاشتهاء. والقويّ القويّ مَنْ يحتمي بالشهوة حين يَصبّ عليه الزبانيةُ سوطَ عذابهم؛ فلا يمتصّ تباريحَ الضرب إلاّ تباريحُ الشوق. وكذلك كان.

كانت الوليمة دسمة. تداعت الضربات سياطًا. ثلاث تعقبها ثلاث. توالت الكلمات شتمًا بذيئًا. لسان يعلوه لسان. ومن السابع جاء العدّ: ست وستّون جلدةً ولمّا يَنْشف الجسدُ بعد. نَظَرَ إلى ساعته. دُون الفجرِ ساعتان. مزيدًا من الأطباق إذن. وصرختُ فيهم، فيه: «يا فاجرًا هاتِ عذابَك، ومُتْ في غيظك؛ فقد سلَّمَتْني بوّاباتُ الشهوة كلَّ المفاتيح.» وواصلتُ حديثَ العشق والإبحار وتوهُّم الشهوة المستحيلة.

من رسوم أخرى لمريد

كانت الحفاوةُ سخية. تضاعفت الضرباتُ سياطًا. ستٌّ تَعْقبها ستٌّ. ارتفعت الكلماتُ شتمًا بذيئًا. لسانٌ يُسْكته لسان. ومن السابع جاء الختمُ: «إنّ لنا مأدبةً من جسد الناقمين بمروج جنّة الكوابيس. مائة جلدة وواحدة تكفي ضيفَنا اليوم. رُشُّوا عليه ماءً باردًا. تمشَّوْا به قليلاً.»

وأراني أمشي في موكبٍ جنائزيّ يجيء الناسُ فيه جمًا غفيرًا. في مكانٍ مستدير استدارةَ الواحة، تزاحَمَ الناسُ أفواجًا أفواجًا. وطقوسُ الدفن قائمةٌ في صمت مهيب. ارتفعت الأصوات تهزج وتُنْشد. لقد أَعْرس المأتمُ في رمشة عين! تعالت الصُّراخاتُ. وَلْوَلَتْ صفاراتُ الإنذار والإسعاف. كَبرَ الاشتباكُ. عمّ الصخب. طلقات... طلقات.

...

انتفضتُ من نومي مذعورًا. وجدتُ نفسي مضطجعًا على ظهري وأنا أقرأ في صفيحة معدنية متحرّكة كُتب عليها بالأحمر القاني: «يُحظَر عليكم، وفق قانوننا، ترويضُ الكوابيس، والتعوّدُ على احتمال الآلام، واستدعاءُ الشهوة وتحريضُها للنيل من عزيمة تلك الآلام.» قانونكم هو فعلاً يا أبناءَ اللعنة والحرام. ماذا نالنا منه سوى الحظرِ والتقديسِ وملازمةِ البيوت والدخول إليها قبل الأوان؟

توالى الطَّرقُ. فتحتُ الباب. كان هو بصلعته الممتدة بين الجبهة ومنتهى القفا، وعلى محيّاه علاماتُ الخجل كالذي فوجئ بمن يَعْرف بعضَ أشيائه الخاصة. سلّمني ورقةً لا أتذكّر لونَها كُتِبَ عليها بالأحرف البارزة: «مستعجل.» بعد ساعة من رتابة السؤال عن الأصل والفصل وما شابَه، صاح أحدُهم مبتهجًا: «من الآن فصاعدًا، عليك أن تَعْبر النهرَ سباحةً؛ فلا جسر يُعْبَر بعد اليوم.»

أخذتْ حبالُ المشهد في التلاقي والتعنكب. ما إن انتصفَ النهارُ حتى كانت وسائلُ الإعلام لما وراء البحار تَنْقل الصدى، وتَجْعل من الهمس صخبًا يشوِّش على الابتسامة العريضة لقارئ نشرة الأخبار المبشِّر بالفتوحات. في المساء كلّم سليمانُ الطيرَ والإنسَ والجنَّ، وشاهَدَ الكلُّ مقارعةَ الصورة للصورة: فيما وراء البحار صورٌ للأشلاء والشظايا والجثث والهيلوكبتر ولبعض آليات أخرى؛ وعلى ضفاف الأطلسيّ بقايا حروفٍ، وأشلاءُ كلمات مبثوثة بالأرقام والأسماء، ونزيف الدم «يناير» جديدًا مجلَّلاً بالسواد والرماد، وفي رحمه دفءُ نار من ربيعٍ آتٍ لاريب فيه. وتهتزّ الصورةُ الثانية لتعمِّد بالعنف والنار «منطقَ المشروعية الناهلة لركائزها من مَعينٍ غير مَعينِ القانون.» تنجلي خيوطُ الحكبة عن حصار معمَّم. يَكْبر الخرقُ على الراقع، ويَسْبح الوطنُ الأسيرُ الآسرُ في شلالات العصي والإقصاءات، ويُنْشِب التقديسُ مخالبَه يَنْهش ـ بالشبهة وبدونها ـ الجسدَ والروحَ.

قفزتْ إلى الذهن من جديدٍ صورةُ الديكتاتور بوصفه مرجعًا مركَّبًا للتخييل الروائيّ بأميركا اللاتينية. وفيما أَعْطف خاتمةَ الكلام على فاتحته يحاصرني هذا السؤالُ: «هل يمكن للمستبدّ في ثقافةٍ ما أن يكون مرادفًا للديكتاتور في ثقافة أخرى؟» إنّ الفروق بينهما دقيقة وذاتُ أوضاع تاريخية متباينة، غير أنّ هناك حبلاً سريًا غيرَ مرئيّ يصل بينهما: إنَّه الطاغوتُ المحكومُ بسلطة الإجبار على التوازن، انطلاقًا من مبدإ العنف والموافقة. وفي مثل هذا الوضع فإنّ القوةَ الأكثرَ متانةً، على حدّ تعبير موريس غودولييه، «ليست عنفَ السائدين فقط، ولكنَّها أيضًا موافقةُ المَسُودين على سيادة الأوائل.» إنّ لحظةَ التقاطع بين العنف والموافقة هي الوضعُ الذي يزدهر فيه المقدَّسُ ويستعيد تطاولَه. ففيها يتخلّى عن اشتغاله الضمنيّ والداخليّ والذاتيّ، بحكم كونه يقوم على تواضُعٍ متبادلٍ بين طرفَي المجتمع ولو افتراضًا، ليأخذ في اشتغاله وضعًا خارجيًا تَحْتكر السلطةُ فيه الحظرَ والعنفَ ضدًا على الآخرين خارجها أو الذين هم في تعارض معها. عندئذ يصطبغ المقدَّسُ بخطاب أسطوريّ مشبعٍ بالربوبية والمطلق وبممارسةٍ عشوائيةٍ متْخمةٍ بالوعد والوعيد.

كما يَبْرز ذلك الروائيُّ التشيكيُّ ميلان كونديرا في قوله: «فحيثما تواجِه السلطةُ تحديًا، تُنْتج آليًا لاهوتَها الخاصَّ بها.» ويمثِّل المنعُ في هذه الحالة إحدى صيغ هذا الإنتاج، وقوامُها «نهجُ النسيان المنظّم.» وتصبح علاقةُ المقدَّس بالممنوع علاقةً تبادليةً، فيها يستمدّ الحظرُ مشروعيتَه وتبريرَه من المقدَّس، ويكتسب هذا الأخيرُ من الممنوع امتيازَه ونفوذَه. وفي ممنوعات الثمانينيات بالمغرب أحدُ تجسيدات هذا الألم السعيدِ النابعِ من عمق هذا الزواج المسيحيّ بين العنف والموافقة، أو بين التقديس والمنع. من هنا نُدْرك أهمية إشاعة الحديث عن ظاهرة المنع: فمثلُ هذا الاهتمام بإمكانه أن يساهم في تعرية أوليات اشتغال الموافقة بوصفها رديفًا للعنف، وفي تحرير موافقة المَسُودين من سلبيّتها، وعنفِ السائدين من لاشرعيّته.

عبد الحميد عقار

سبق تعريف ص ٤٦